العِقْدُ الفَرِيدُ

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

المتوفى سنة ٣٢٨ هـ

بتحقيق

محمد سعيد العريان

الجزء الأول

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالكتاب ومؤلفه

بقلم

محمد سعيد العريان

يُعَدُّ كتاب «العقد» لابن عبد ربه من أقدم ما وصل إلينا من كتب الأخبار والنوادر؛ لم يسبقه إلى هذا الباب فيما نعرف إلا ثلاثة نفر: الجاحظ صاحب البيان والتبيين: سنة ٢٥٥ هـ؛ وابن قتيبة صاحب عيون الأخبار: سنة ٢٧٦ هـ؛ والمبرّد صاحب الكامل: سنة ٢٨٥ هـ.

على أن ابن عبد ربه وإن كان مسبوقا إلى التأليف فى هذا الباب، قد اجتمع له فى هذا الكتاب مالم يجتمع مثله فى كتاب قبله ولا بعده من كتب هذا الفن؛ فكان بذلك حقيقا بالمنزلة العليّة التى أحلّه إياها أدباء العربية؛ إذ كانَ مصدراً من أهم مصادر التاريخ الأدبى التى يُعوَّل عليها ويُستَند إليها، بحيث لا يُغنى غَناءه كتاب فى المكتبة العربية - على غِناها وما احتشد فيها من تراث أدباء العرب.

والحقُّ أن هذا الكتاب هو موسوعة أدبية عامة، ويوشك مَن ينظر فيه أن يجزم بأنه لم يغادر شيئا مما يهم الباحث فى «علم العرب» إلا عرَض له، وأعنى بـ «علم العرب» مجموعةَ المعارف العامة فى الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع التى تتكوّن منها عناصرُ الثقافة العربية العامة لعهد مؤلف هذا الكتاب؛ وعن الفروع التى انشعبت من علم

العرب قريباً من ذلك التاريخ واختصت بالبحث فى «علوم الدين» ثم تميّزت باستقلالها — لا يَعْدَم الباحث أن يجد فروعاً من مسائلها قد عرض لها صاحبُ العقد فى أبواب متفرقة من كتابه، لعله لا يجد لكثير منها نظائر فى كثير من الكتب الخالصة للبحث فى هذه العلوم.

وثمة فضلٌ آخر يميز صاحب العقد على سابقيه ممن عرضوا لهذا الباب، هو أن ابن عبد ربه أندلسىٌّ من أهل الجزيرة يتحدث عن أدب المشارقة فلا تقصِّر به مغربيَّتُه عن اللحاق والسبق؛ ولعل هذا كان بعضَ دواعى ابن عبد ربه إلى تأليف كتابه؛ إذ كان فى طبعه من المنافسة وحب الغَلَب ما يحفزه إلى هذا المضمار، كما سنذكره بعد.

وليس بى من حاجة إلى الحديث عن نهج صاحب العقد فى تأليف كتابه؛ فقد تكفَّل هو بتبيان ذلك فى مقدِّمة الكتاب، ولكن الذى يعنينى أن أذكره هنا، هو أن ذلك النهج الذى سلكه مسبوقاً إليه وسلكه كذلك مَن بعده: كان يستند إلى قاعدة مقرَّرة فى «علم الأدب» كما عرَّفه القدماء؛ انظر إلى ابن خلدون يقول فى مقدمة تاريخه: «هذا العلم — نعنى علم الأدب — لا موضوع له يُنظَر فى إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرتُه، وهى الإجادة فى فَنَّى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم؛ فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملَكة، مِن شعرٍ عالى الطبقة، وسجعٍ متساوٍ فى الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة، يستقرى منها الناظرة فى الغالب معظمَ قوانين العربية، مع ذكر بعض من أيام العرب، ليفهم به ما يقع فى أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة؛ والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شىء من كلام العرب وأساليبهم ومناحى بلاغتهم إذا تصفَّحه . . . . . . ثم إنهم إذا أرادوا حَدَّ هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب [illegible] أخبارها، والأخذُ من كل علم بِطَرَف».

هذا الحدّ الذى ذكره ابن خلدون فى تعريف علم الأدب — [illegible] سنة ٨[illegible]، وعبد [illegible] [illegible]رفا لكل المشتغلين بالأدب قبل عهد ابن خلدون، [illegible]ة المختار بعد كلام فى [illegible] عبد ربه وبعده: يجمعون من أشعار العرب وأخبار[illegible] بحسنه وتمحو الأ[illegible]

ليكون من ذلك سبيل إلى تحصيل الملكة ، وإلى الإجادة فى فنّى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ؛ وإذ كان ابن عبد ربه لم يقصد من كتابه إلى أكثر من هذا المعنى ، فقد كان ذلك نَهْجَه فى تصنيف كتابه والحشدِ له والتفنُّنِ فيما ينقل ويختار من أشعار العرب وأخبارها ، ومن أطراف كل علم وطرائفه .

ولقد وُفّق ابن عبد ربه فيما جَمع لكتابه من فنون الأخبار ، ورعَتْهُ العنايةُ رعايةً هَيَّأتْ لكتابه الخلود والذِّكرا ؛ فإن كثيراً مما اجتمع له فى هذا الكتاب قد عصفت الأيام بمصادره الأولى فدَرَسَتْ آثارُها وضاعت فيما ضاع من تراث المكتبة العربية وآثارِ الكُتَّاب العرب ، وبقى العقدُ خلَفاً منها لاغَنَاء عنه ولا بديلَ منه ، يرجع إليه الأديبُ والمؤرخ واللغوى والنحوى والعروضى وصاحب الأخبار والقصص ، فيجد كلٌّ طلبتَه وغرضَه ، ولا يستغنى عنه غير هؤلاء من طلاب النوادر والطرف فى باب الطعام والشراب والغناء والنساء والحرب والسياسة والاجتماع ومجالس الأمراء ومحاورات الرؤساء ، وغير ذلك مما لا يستوعبه الحصر ولا يبلغه الإحصاء .

* * *

على أنّ ابن عبد ربه لم ينظر فيما جمع لكتابه من الفنون نَظَرَ المختص ، بحيث يختار ما يختار لكل فرع من فروع المعرفة بعد نقد وتمحيص واختبار فلا يقع منه فى باب من أبواب الفن إلا ما يجتمع عليه صوابُ الرأى عند أهله ، لا ؛ ولكنه نظر إلى جملة ما جمع نَظَرَ الأديبِ الذى يروى النادرة لحلاوة موقعها لا لصحة الرأى فيها ، ويختار الخبر لتمام معناه لا لصواب موقعه عند أهل الرأى والنظر والاختصاص ؛ انظر إليه فيما رَوى من حديث رسول صلى الله عليه وسلم مثلا ، تجد الصحيح والمردود والضعيف والمتواتر والموضوع [illegible] له ما نقلَ من حوادث التاريخ وأخبار الأمم والملوك ، تجد منه ما تَعرِف وما تُنكر ، لم يغادر شيئاً وما تكذِّبه [illegible] ما يتناقض آخره وأوّله ؛ ولم يكن ابن عبد ربه من الغفلة بحيث [illegible] مجموعةَ المعارف العامة فى الأ[illegible] جامعُ أخبار ومؤلّف نوادر ، جمع ما جمع وألف ما ألف [illegible] الثقافة العربية العامة لعهد مؤلفه [illegible] أخذ وما يدع ؛ ذلك كان شأنه وشأن المؤلفين فى هذا

الفن من قبله ومن بعده ، على حدود متعارفة بينهم ورسوم موضوعة . على أن ذلك لا يعنى أن ما جَمَع من مثل تلك الأحاديثِ وهذه الأخبار ليس له مغزاه عند أهل الاختصاص والفن ، ولكنها أشياء للاستدلال لا للدليل ، كما يقول أصحابُ المنطق .

* * *

ذلك هو موجز الرأى فى التعريف بهذا الكتاب وقيمتِه فيما عَرض له من أبواب العلم والأدب ؛ وبقى علينا أن نعرف المصادر التى استند إليها ابن عبد ربه من الكتب والرواة .

يقول ابن عبد ربه فى مقدمته : « وقد ألفت هذا الكتاب ، وتخيّرتُ جواهره من متخير جواهر الأدب ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب ، وإنّ مالى فيه هو تأليف الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرش لدرر كل كتاب ؛ وما سواه فمأخوذٌ من أفواه العلماء ، ومأثورٌ عن الحكماء والأدباء . . . »

وهذا الذى يقوله المؤلف فى وصف كتابه ، يدعونا إلى السؤال : مِن أين اختار ابن عبد ربه مختاراته ؟ وماهى مصادره الأولى ؟ . . . انظر إليه تجده يروى عن الشيبانى ، والمدائنى ، والأصمعى ، وأبى عبيدة ، والعتبى ، والشعبى ، والسجستانى ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، والمبرد ، والرياشى ، والزيادى ، وابن سلام ، وابن الكلبى ، وغيرهم من علماء المشارقة ؛ وعن الخشنى ، وابن وضاح ، وبقىّ بن مخلد ، من علماء الأندلس ؛ فأىٌّ هؤلاء لقى ابنُ عبد ربه فأخذ عنهم شفةً إلى شفة ، وأيهم نَقل إليه من أخباره راويةٌ عن راوية ؟ ..

لم يَعرِض أحدٌ ممن ترجموا لابن عبد ربه ـ للحديث عن رحلةٍ له إلى المشرق ـ إلا فروضاً نظرية استنبطها بعض المتأخرين لدلائل يستند إليها فى كتاب « العقد » ولا نراها تصلح للاستدلال ؛ فلم يبقَ إلا أن صاحب العقد قد رَوَى من أخبار المشارقة ما نُقل إليه حيث هو فى مُقامه من قرطبة ؛ ولم يعبر البحر ولم يركب الصحراء ؛ وقد كان من شيوخ ابن عبد ربه فى الأندلس كما سنذكره بعد : الخشنى ، وبقى بن مخلد ، وابن وضاح ؛ وللأوّلين منهم رحلة إلى المشرق ورواية .

على أن كثيراً من كتب المشارقة وعلومهم كانت ذائعة [illegible] لعهد ابن عبد ربه ؛

وكان لها عند العلماء منزلة ومكان ؛ فليس ثمة مايمنع أن يكون ابن عبد ربه قد استعان كثيراً أو قليلا بما كانت تضمُّ المكتبةُ العربية فى قرطبة من آثار المشارقة .

وقد قدَّمنا القولَ فى صدر هذا البحث أنه لم يسبق ابنَ عبد ربه إلى التأليف فى باب الأخبار والنوادر على هذا النحو إلا ثلاثةُ نفر : الجاحظ ، وابن قتيبة ، والمبرّد .

أما الجاحظ والمبرد فقد كان لهما نهج فى التأليف يخالف نهج العقد ، على اتفاقهما فى الموضوع والغرض ؛ فكان انتفاعه بما اطلع عليه من مؤلَّفاتهما فى المادة لا فى الطريقة وأما ابن قتيبة ؛ فان بينه وبين ابن عبد ربه مَشَابِهَ من وجوه ، حَمَلَتْ بعض الباحثين على الزعم بأن صاحب العقد كان فى نهجه وفى تبويبه لاحقاً مقلِّداً ، بل قد غَلَا بعضهم فى الاستنتاج فزعم أن ابن عبد ربه قد سطا على كثير من كتب ابن قتيبة فنقلها نقلا إلى عقده بحالها من غير تغيير كبير ؛ وإنه مما يقوِّى هذا الزعم ، تلك الشهرةُ العظيمة التى كان يحظى بها ابن قتيبة عند أهل الأندلس ، حتى كانوا يتهمون من خَلَتْ مكتبتُه من مؤلَّفاته ، ولكن العقد الفريد على الرغم من ذلك غيرُ عيون الأخبار ، وابنُ عبد ربه غير ابن قتيبة ، ولكل من الرجلين شخصيته المتميِّزة بوضوح من خلال مختاراته ، ولكل منهما مزاجُه وروحه ومذهبه وجوُّه الذى يعيش فيه ويُصدر عنه ؛ فسواء كان هذا الزعم صحيحاً أو مبالغة فى الاستنتاج ، فلن يضير ذلك صاحبَ العقد شيئا ، ولن ينقص شيئا من قدر كتابه ؛ إذ كانت المادة التى اجتمع منها الكتابان ليست مِلكا لأحد الرجلين ، ولا هى أثراً من إنشائه الأدبى الخالص ولكنها تراث مشترك يتوزَّعه أبناء العربية مما خلَّف آباؤهم .

. . . وليس معنى أنه لم يسبق ابن عبد ربه فى بابه إلا هؤلاء النفرُ الثلاثة ، أنه لم يأخذ عن غيرهم ؛ ولكن الذى نعنيه أن انتفاعه بكتب هؤلاء النفر كانت أظهرَ دلالةً على نفسها ، وإلا فقد كانت مكتبة قرطبة لهذا العهد حافلة بطائفة من الكتب لم يجتمع مثلُها فى زمان فى مكان ، فلا بد أن يكون ابن عبد ربه قد استعان منها بالكثير ، إلى جانب ما أخذ من أفواه العلماء المغاربة الذين كانت لهم رحلة إلى المشرق أذاعوا بها علم العربية بين الشرق والغرب

* * *

ويقول الأستاذ أحمد أمين عميد كلية الآداب فى جامعة القاهرة ، فى بحث نشره للتعريف بصاحب العقد (مجلة الثقافة ـ العدد ٩٤ ـ ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٠) : إن أمالى أبى على القالى كانت هى النواةَ الأولى التى بذرها أبو على فى بلاد الأندلس من علوم المشرق وعليها تخرج مشهورو الأدباء فى الأندلس ، ومنهم ابن عبد ربه . . . . . .

وظاهر كلام الأستاذ العميد صريح فى أن ابن عبد ربه كان لاحقاً لأبى على القالى ، وأنه من تلاميذه ، وأن كتاب « الأمالى » أسبق من « العقد الفريد » ، وأنه أول ما نُقل إلى المغاربة من علم المشرق . . .

وأرى هذا كله خطأً لا يستند إلى دليل من التاريخ ، فقد كان مَقْدَم أبى على القالى إلى الأندلس بعد وفاة ابن عبد ربه بسنتين وأشهر (توفى ابن عبد ربه بقرطبة سنة ٣٢٨ ، وكان مقدم أبى على القالى فى إمارة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٠) ، وكان تأليف كتابه الأمالى بعد مقدمه بسنين ؛ إذ كان هذا الكتاب هو مجموعَ محاضراته فى جامع قرطبة .

فاذا أضفنا إلى ذلك أن ابن عبد ربه قد فرغ من تأليف كتابه « العقد » فى سنة ٣٢٢ على ما رجّحه ، وقدّرنا المدة التى أملى فيها أبو على محاضراته فى جامع الزهراء قبل أن يجمعها فى كتاب ببضع سنين ، كان لنا من ذلك برهان لا يُدْفَع بأن العقد الفريد كان أسبقَ من الأمالى ببضع عشرة سنة ؛ فلا وجه هناك للقول بأن ابن عبد ربه كان من تلاميذ أبى على ، وبأن كتابه على منهاجه .

وأما قوله إن كتاب الأمالى كان النواةَ الأولى من علم المشارقة فى الأندلس ، فينقضه ما كان معروفا قبل ذلك فى الأندلس من كتب القوم ، حتى روى ابن كثير فى تاريخه : أن أهل المغرب كانوا يتهمون من لم يكن فى بيته من مؤلفات ابن قتيبة شىء (توفى ابن قتيبة سنة ٢٧٦ ، وكان مولد أبى على سنة ٢٨٨) ، وكان للمغاربة من العناية بتحصيل علم المشرق والتبكير إليه ما دعا المستنصرَ إلى أن يرسل وراء النسخة الأولى من كتاب الأغانى لأبى الفرج فيشتريها بألف دينار . . .

أضف إلى ذلك أن رحلة المغاربة إلى الشرق كانت متصلةً لطلب

القرن الثالث ؛ فلا يمكن مع هذا أن يكون علم أبي عليّ جديدا على أهل الأندلس فى أواسط القرن الرابع ، وأن يكون نواةً وقدوة ومنشِئَ مدرسةٍ يتخرج عليها مثل ابن عبد ربه مؤلف العقد . . . .

* * *

ويتحدث ابن عبد ربه فى مقدمته عن « تأليف الاختيار وحسن الاختصار » فأىّ معنى لما يُذكر من حسن الاختصار ، فى هذا المقام ؟ أتُراه يعنى حسن الاختصار فى المجموع ، أو فى كل خبر على حدته ؟ أعنى : هل كان ابن عبد ربه يروى الخبر بحروفه كما سمعه أو قرأه من غير اختصار فيه وإنما كان يختصر فى جملة ما يروى من الأخبار بحيث لا يُثبت منها إلا ما تدعو الحاجةُ إليه ؟ أو كان يختصر الخبر نفسه فيحذف من حروفه ما يحذف وينقص ما ينقص ذهاباً إلى الاقتصاد فى التعبير عن المعنى الذى ينقله ؟ . . .

أقول : هذا كتاب العقد بين أيدينا ، وقد نظرتُ فيه طويلا ، وعاودت النظر مرات فبدا لى من طول المراجعة أمرٌ لا بد من التنبيه إليه : ذلك أن بعض دواعى ابن عبد ربه فى تبويب كتابه ، كانت تقتضيه أن يثبت الخبر مرات فى أبواب متفرقة ، لصلاحيته للدلالة فى أكثر من موضوعٍ واحد ؛ فإذا أنت حقَّقتَ النظر فى هذه الأخبار المكرَّرة فقلَّ أن تجد منها خبراً مرويًّا فى موضعين بحروفه على وجه واحد ، فثمة الحذف والزيادة والإبدال وليس هناك من سبب ـ فيما نرى ـ لهذا الاختلاف فى رواية خبر واحد فى كتاب واحد لمؤلف واحد ، إلا أن يكون المؤلف يملك من حرية التصرف فى رواية هذه الأخبار ما يسمح له أن يرويها بلغته ، ويؤدِّيها على الوجه البيانى الذى يراه ؛ فهو يرويها بالحذف والاختصار حيناً ، وبالبسط والزيادة حيناً آخر ؛ . . . فهل كان ذلك بعض ما يعنيه ابن عبد ربه بـ « حُسن الاختصار » ؟ . . .

. . . ولقد يكون هذا الخلاف فى رواية خبر واحد نتيجةً لازمةً لاختلاف الرواة النقلة عنهم ، أو نتيجة لازمة لاختلاف الكتب التى ينظر فيها ويقتبس منها ؛ ولكن [illegible] حين يكون راوى الخبر فى الموضعين واحداً ، والكتاب المنقول عنه

واحداً كذلك ؟ . . .

أظن أنه يحق لى بإزاء مثل ذلك أن أزعم بأن ابن عبد ربه لم يكن ينظر إلى شروط الرواية تلك النظرةَ المتحرِّجة التى تفرض على مثله فى هذا المقام أن يلزم جانب الحرص فى المحافظة على نَصِّ ما يرويه بحروفه ، وأنه كان يجيز لنفسه أن يتصرف فى رواية بعض الأخبار تصرُّفاً يؤدى بها معناها دون حروفها ؛ وأحسب ذلك يصلح تعليلا لانفراد ابن عبد ربه فى بعض ماورد فى كتابه من نصوص تخالف ما أجمع عليه رواتها فى مختلف كتب الأخبار والنوادر ؛ وأحسبه كذلك سبباً فيما التزمه صاحب العقد ونبَّه إليه فى مقدمته وهو حذف الأسانيد فيما روى من أخباره .

فاذا صح ذلك ، كان العقد إلى جانب ماقدّمنا من التعريف بمزاياه ، مرجعا لغويًّا يمكن الاستناد إليه فى شىء من التطورات اللغوية لبعض معانى العربية بين الشرق والغرب .

صحيح أن بعض هذا الاختلاف فى رواية بعض الأخبار قد يكون مرجعُه رواةَ الكتاب نفسِه وكَتَبَتَه ونُسَّاخه ، ولكن ذلك إذا صحَّ فى قليلها لا يصح فى سائرها ؛ وقد نبَّهنا فى هامش هذه الطبعة إلى كثير من أنواع هذا الاختلاف ، فليرجع إليها من شاء للنظر والاستدلال .

* * *

بقى أن نسأل : لماذا قَصَر ابنُ عبد ربه كتابه على (أخبار المشارقة) وهو مَن هو علما وتحصيلا ومعرفة بآداب قومه ، وقُرطبةُ هى ماهى فى ذلك العصر الزاهر فى الأدب والعلم والفن والسياسة ؟ . . .

تعليل ذلك سهل ميسور لمن يعرف تاريخ ذلك العصر فى قرطبة وبغداد حاضرتى البلاد العربية فى الغرب والشرق .

لقد كان فرار عبد الرحمن الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان إلى الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية فى المشرق ، محاولةً جريئةً لإقامة حكومة المغرب بإزاء الحكومة العباسية فى بغداد ؛ ولقد حالفَ التوفيقُ عبدَ الرحمن

كثير مما أراد ، وأقام عرشا لبنى أميـة فى الأندلس يتوارثه بنوه سيدا عن سيد ، كلهم يحرص على النهوض بدولته إلى المنزلة التى يجعلها تناظر بغداد ؛ فمن ذلك كانت المنافسة بين الدولتين فى الشرق والغرب دائبةً لا تنى ؛ وكانت الوفود لا تفتأ ساعيةً بين الحاضرتين ، فلا يظهر جديدٌ فى بغـداد حتى يكون نَبؤه فى قرطبة ، ولا ينجم نجمٌ فى قرطبة حتى يذيع خبره فى بغـداد ؛ واتخذت المنافسة بين الدولتين مظهراً علميا يبدو أثره فيما كان من اهتمام المغاربة بالرحلة إلى الشرق للتزوّد من معارفه ، وفيما كان من تطلُّع المشارقة إلى الأندلس ليعرفوا كل جديد من خبره وما أحدث علماؤه وأدباؤه فى مختلف فروع المعرفة .

على أن المغاربة مع ما كان فيهم من اعتداد بأنفسهم وعصبية لبلادهم لم يكن منكوراً لديهم أن علم العربية فى المشرق كلّه ، منه نشأ وفيه نَمَا ورَبا ؛ فكانت إليه أنظارهم ، وإليه حجُّهم وقبلتُهم ، ولا يتمُّ تمامُ العالم منهم ـ عند الرؤساء وعند العامة ـ إلا أن يكون عليه مَشرِقيًّا .

وكما نشاهد فى مصر لعهدنا مَن يتزيّد فى الفضل بكثرة ما يروى من علم الأوربيين وما يقصُّ من مشاهداته لديهم ومايروى من أخبارهم ـ كان هنالك فى ذلك العهد . . . . . .

. . . وفى ذلك العهد كان ابن عبد ربه ، وكأنى به وقد رأى المنزلة التى ينزلها علماء المشارقة من نفوس قومه ، والمكانَ المرموق الذى تحتله مؤلفاتُهم وكتبهم ؛ حتى كان شأن ابن قتيبة وكتبه عندهم ما قدَّمنا ـ كأنى به وقد رأى ذلك ، فدبر أمراً ، وأحكَمَ خُطةً ، واتخذ طريقاً ؛ ثم خرج على الناس بكتابه يقول : ها أنا ذا ، وها هم أُولاء !

وكان علماء الأندلس يرحلون إلى المشرق ، فرحل المشرق إلى الأندلس فى كتابِ ابنِ عبد ربه . . . !

ذلك وجه الرأى فيما أحسب لاقتصار كتاب ابن عبد ربه على أخبار المشارقة إلا قليلا منه ، لا أرى لذلك وجها سواه .

ورحل كتاب ابن عبد ربه إلى المشرق تسبقه شهرته ، ووقع فى يد الصاحب بن عباد [illegible] ملهوفا يلتمس فيه علمَ مالم يعلم ، فما هو إلا أن نظر فيه حتى طواه وهو يقول

أسِفا : « هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا ! » . . . ثم دار الزمان وجدَّت الحوادثُ فى آثار العرب فأخذتهم بالسنين ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات ، وتبعثرت المكتبة العربية فَخَلَتْ بعد امتلاء ؛ ولكن علم المشارقة ظلَّ محفوظاً بين دفتى كتاب ابن عبد ربه المغربى الأندلسىّ القرطبى . . . !

هذا ، وقد كان كتاب العقد من بعدُ ، مرجعاً له خطره ومقداره عند كثير من علماء المشارقة ؛ فنقل عنه القلقشندى فى صبح الأعشى ، والنويرى فى نهاية الأرب ، والأبشيهى فى المستطرف ، والبغدادى فى خزانة الأدب ، وابن خلدون فى المقدمة ، وغير هؤلاء كثير حتى قل أن يخلو كتابٌ من كتب النوادر بعدُ إلا كان العقد مرجعَه وخزانة علمه ، ولو أننى ذهبت أستقصى أسامى الكتب التى سطا أصحابها على العقد فاحتملوا من خزائنه ما أغناهم وذهب بصيتهم وشهرتهم كل مذهب ـ لأعيانى البحث وانقطع بى دون الاستقصاء .

* * *

ولكن هذا الكتاب على ما قدمتُ من وصفه ومن خبره واحتفالِ العلماء به ، لم يسلم من عبث الأيام ، وعدا عليه ما عدا على كثير من تراثنا العربى فى الشرق والغرب ؛ فلم يصل إلينا إلا بعد ما تناولته أيدى العابثين بالمسخ والتشويه والحذف والزيادة ، حتى أوشك ـ بما دخل عليه ـ أن يفقد قيمته العلمية عند أهل البحث والنظر .

وكانت أولى طبعاته فى مصر سنة ١٢٩٣ هـ ، ومن هذه الطبعة كلُّ الطبعات التالية ؛ فهى صورة منها بما فيها من الغلط والتحريف والحشو والنقص ؛ ولم يحاول أحد منذ ذلك التاريخ أن ينظر فى هذه الموسوعة العربية نظر العالم المحقق فيخرجها لقراء العربية فى صورة أدنى إلى الكمال ؛ بلى ، قد حاول هذه المحاولةَ غيرُ واحد من أهل التحقيق ثم ارتدوا جميعاً على أعقابهم ، ومن هؤلاء مَن يُعَدُّ رأساً فى الآداب العربية ، منهم الأساتذة الأعلام أصحاب « مختار العقد » : المرحوم محمد الخضرى بك ، وعبد الخالق عمر بك ، وعبد العزيز خليل بك ، وعبد الحكيم محمد . انظر إليهم يقولون فى مقدمة المختار بعد كلام فى وصف العقد « . . . غير أنا رأينا فيه ثلاثة عيوب كادت تذهب بحسنه وتمحو الانتفاع به والاستفادة

الناس به : أما الأول فتحريف يكاد المعنى يضيع بسببه فى كثير من مواضعه ، حتى سمعنا من أديب كبير أن إصلاح العقد الفريد مما ليس فى مكنة إنسان ؛ ويُبَيِّنُ لك هذا أن تنظر إلى مثل هذه الجملة : «والفرح فى أهلك» ثم تعلم أنها حُرِّفت عن : «والقدح فى الملك» ، وحينئذ يظهر لك صعوبة هذا الإصلاح حقيقة ... الخ » .

قلت : ولو أن الأمر اقتصر على مثل عبارة « الفرح فى أهلك ، والقدح فى الملك » لكان الأمر أهون مما قدَّروا ...

وسمعتُ ممن لا أتهم أن المرحوم الأستاذ المرصفى ، شيخ أدباء الجيل ، همَّ مرة أن يقرأ العقد لتلاميذه ثم نكص ، إشفاقاً من مشقة تصحيحه ؛ فاذا كان هذا الخبر صحيحاً ، ولا أحسبه بعيداً من الصحة ، فان فيه الدلالة على مقدار ماعبثت الأيام بأصول هذا الكتاب ، وما يعترض سبيل تصحيحه من أهوال ...

* * *

قلت : إن فى النسخة التى بين أيدينا اليوم من العقد ما فيها من المسخ والتحريف والنقص والزيادة ؛ أما المسخ والتحريف فحسبى الإشارة إلى نوعهما فيما ذكرت قبلُ من قول أصحاب « مختار العقد » ؛ وأما النقص فان مواضعه ظاهرة فى هذه الطبعة بما زِيد فيها من العبارات والحروف بين العلامتين [ ] ؛ وأما الزيادة فحسب القارئ منها مَثَلٌ واحدٌ أنبه إليه : فقد كانت وفاة ابن عبد ربه مؤلف العقد على التحقيق سنة ٣٢٨ ﻫ ؛ فمِن أين له أن يترجم فى أخبار الخلفاء وتواريخهم للراضى والمتقى ، والمستكفى ، والمطيع ، وكلهم بعد وفاة ابن عبد ربه ؟

* * *

ذلك هو العقد الفريد كما كان ، وها هو ذا اليوم بين يدى قارئه ؛ لا أزعم أنى بلغتُ به كل ما أردتُ ، ولكنى بذلتُ له كل ما أطقت ؛ وحسبى أن أجد بين يدى قراء العربية اليومَ نسخةً من هذه الموسوعة الجامعة أقربَ إلى الكمال والصحة ، لأشعر بالرِّضا إلى مابذلت [illegible] وما أنفقتُ من عافية ؛ ولا أحاول أن أصف عملى بأكثر مما يصف .

نفسه ؛ ولى من حُسنِ تقديرِ القراء فيما أحسنْتُ وواسع مغفرتهم فيما قصَّرتُ ما يمنعنى من استجداء الثناء أو تقديم المعاذير ؛ والله حسبي !

* * *

وإذ كان العقد على ماقدّمت من قيمته لكل باحث ، كان لابدَّ لتمام نفعِه أن يكون له فهارس ترشد إلى أبوابه وتهدى إلى مسالكه ؛ فعُنِيتُ بأن أقسِّم فهارسه إلى خمسة أنواع :

١ — فهرس الموضوعات ، وقد جعلته ملحقاً بكل جزء من أجزائه .

٢ — فهرَس الأعلام ، ويشمل كل ما يضم العقد بين دفتيه من الأسماء والكُنَى ، من غير التفاتٍ إلى مراتبهم العلمية .

٣ — فهرس القوافى .

٤ — فهرس القبائل والبطون والأماكن والبلدان والطوائف .

٥ — فهرس أنصاف الأبيات .

وهذه الفهارس الأربعة الأخيرة ملحقة بالجزء الأخير من الكتاب ، مرتبة على حروف الهجاء .

وأحسب أنه كان يسعنى أن أجعل للأمثال فهرساً سادساً ، لولا أنى رأيتها مجموعة فى كتاب واحد من جواهر العقد ، بحيث لايصعب على القارئ أن يهتدى منها إلى مايريد من غير احتياج إلى فهرس يَهدى إليها .

* * *

وقد ارتضيتُ أن أجعل الكتاب فى ثمان مجلدات ، إذ كان العقد ـ على أنه كتاب العالم والأديب والمؤرخ ـ مما لايستغنَى عنه طالب القصص والنوادر ، ومُلتمِسُ الفكاهات والمُلَح ، ومتتبِّعُ الأخبار والطُّرَف ؛ ومثل هذا الكتاب الذى يُلتَمس للرياضة واللهو ، ينبغى أن يخفَّ محملُه ، ليسهل على صاحبه فى السفر والحضر ، وفى الحديقة والمنزل .

* * *

. . . ويبقى أمر لابد من التنبيه إليه ، ذلك أنى آثرتُ تسمية الكتاب بالا

الذى يعرفه به أكثر قراء العربية اليوم فى مختلف أقطارها ؛ وهو « العقد الفريد » وإنما سمّاه مؤلفه « العقد » فقط ، فاستحدث المتأخرون هذه الصفة « الفريد » . وُفّق إلى هذا الرأى المستشرقُ الالمانى بروكلمان (Brockelmann) ، وتابعه بعضُ الباحثين من كتاب العربية ويرجّح الأستاذ جبرائيل سليمان جبُّور فى كتابه (ابن عبد ربه وعقده) أن زيادة « الفريد » فى اسم الكتاب وقعتْ فيما بين سنتى ٦٥٢ ـ ٨٥٠ هـ ، وقد استند فى رأيه ذلك إلى دلائل حقيقة بالتقدير والنظر ؛ فمن شاء فليرجع إليها ثمة (ص ٢٩ ـ ٣١) فإن فى ذكرها هنالك غناء وكفاية .

ترجمة المؤلف

٢٤٦ هـ — ٣٢٨ هـ

أرانى قد ذكرتُ عن الكتاب ما وسِعَنى من غير أن أعرِّف بصاحبه على أنى أحسب القارئ قد يجد فى بعض ماذكرتُ ماقد يغنيه عما بقى ؛ وفى الكتابِ بعدُ مايدلُّ على صاحبه دلالة لاتحتاج إلى تعريف ؛ وليس ابن عبد ربه مجهولا لقراء العربية بحيث يلزمنى التعريف به ، وليس الحديث عن تاريخه من السهولة بحيث يُغنى فى درْسه صفحاتٌ فى مقدمة كتاب ؛ على أنى مُثبِتٌ هنا بعضَ خبره على إيجاز ، تفادياً من النقص ، وتوسطاً بين المنزلين .

نسبه :

هو أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربِّه بن حبيب بن حُدَير بن سالم القُرطُبى الأندلسى ، وكان جده سالم مولى لهشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية .

نشـــأته :

نشأ ابن عبد ربه بقرطبة حاضرة الأندلس لعهد بنى مروان ، وكان مولده فى العاشر من رمضان سنة ٢٤٦ هـ ، ولم تعرف عنه رحلة إلى غير بلاد الأندلس ، وعاصر من أمراء بنى مروان : محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) والمنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ) ، وعبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) ، وعبد الرحمن الناصر بن محمد (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) ومات فى إمارته ؛ وله فى هؤلاء الأمراء الأربعة مدائح ذكر بعضها فى كتابه ؛ ويظهر أنه كان مختصاً بهم محظيًّا لديهم ؛ وله فى عبد الرحمن الناصر الأرجوزة الشهيرة التى فصّل فيها مغازيه مرتّبةً على السنين إلى سنة ٣٢٢ ، وقد أوردها فى كتاب العسجدة الثانية فى أخبار الخلفاء وتواريخهم وأيامهم (انظر الجزء الخامس) .

ولا يُعرف شىء من تاريخ ابن عبد ربه فيما عدا أنه كان فى شبابه لاهيا ولوعا بالغناء ، ولكن ذلك لم يمنعه من التحصيل والدرس ، حتى عُدّ من فقهاء الأندلس ، وله شعر أيام صبوته رجع عنه فى أخرياته وعارضه بقصائد فى الزهد سمّاها « الممحّصات »

شيوخه :

ويذكر المؤرّخون من شيوخ ابن عبد ربه ثلاثة : بقىّ بن مخلد بن يزيد القرطبى (تو[فى] سنة ٢٧٦ هـ) ، ومحمد بن عبد السلام الخشنى القُرطبى (توفى سنة ٢٨٦ هـ) ومحمد بن وضـ[ـاح] وكان للأولين رحلة إلى المشرق ورواية وتصانيف مشهورة .

خُلقه وصفته :

لم يذكر لنا المؤرخون شيئاً من سيرة ابن عبد ربه تدل على خلقه وصفته ، إلا ما قد[مناه] من حديث لهوه وصبوته فى شبابه ، ثم توبته وزهده من بعد ، ويمكننا أن نستنبط [من] دراسة أدبه أنه كان غيوراً ، ولوعا بالمُنافسة ، معتدًّا بنفسه ، ميّالاً إلى المزاح والنـ[ـادرة] جريئا على البذاء ، يبدو ذلك من [...] ومن نقداته وتعقيبه على كثير مـ[ـن] أخبار العلماء ، وفى العقد كثير من ذلك .

أما صفته الجسدية فلا نجد مايقربها إلى خيالنا إلا قصة أوردها المقرى عن حديث كان بين ابن عبد ربه وأبى محمد يحيى القلفاط الشاعر ، يستفاد منها أن ابن عبد ربه كان دميا ، آدرَ ، قريبَ الخطو ، يُباعد مابين رجليه ، هُزأة .

مؤلفاته :

لا يُعرف لابن عبد ربه كتابٌ غير العقد ، وديوانِ شعر مفقود ، وذكَر صاحبُ كشف الظنون أن له كتابا آخر سمّاه « اللباب فى معرفة العلم والآداب » .

ولا نعرف على التحقيق متى ألف ابنُ عبد ربه كتاب « العقد » وهو قد عُمِّر اثنتين وثمانين سنة ، ولكنا نرجّح أنه فرغ من تأليفه قريباً من سنة ٣٢٢ ﻫ أى قبل موته بست سنين تقريبا ، يرشدنا إلى ذلك أرجوزته فى مغازى عبد الرحمن الناصر ، وقد فصّل فيها أخباره ووقائعه إلى ذلك التاريخ ، فلو أن ابن عبد ربه لم يكن قد فرغ من تأليف كتابه فى سنة ٣٢٢ لوجد مجالا للزيادة فى هذه الأرجوزة حتى يبلغ بها ما يشاء من تاريخ أميره ، وقد كان فى أعماله بعد هذا التاريخ ما كان حقيقا بالإشادة والتنويه .

وفاته :

وأصيب ابن عبد ربه بالفالج فى آخر سنيه ، وتوفى يوم الأحد لثنتى عشرة ليلة بقين من جمادى الأولى سنة ٣٢٨ ﻫ ، ودفن يوم الاثنين فى مقبرة بنى العباس بقرطبة .

رحمه الله وأثابه !

محمد سعيد العريان

شبرا فى مساء الاثنين (*) { ١١ من شوال سنة ١٣٥٩ ﻫ / ١١ من نوفمبر سنة ١٩٤٠ م }

(*) أثبتنا هذه المقدمة للطبعة الأولى فى هذا ... وقد رأينا أن نبقى عليها فى هذه الطبعة كما